

قضية الحرية وانعكاسها في أدب آسيا وإفريقيا

بقلم كمال جنبوط

ايها الاخوان ،

واقعه وبين الحرية ، بين الحرية وبين ما ولده الانسان وما سيبدعه حتى نهاية الابد من أنظمة ومؤسسات ومفاهيم ، يحاول من خلالها أن يجلو حقيقته ويكشف عن اكناه ذات الوجود وودائعها في ذاته . فالادب استنارة لهذه المعرفة الحقيقية الدائمة ، وليس هو نفسية للواقع او تخيلا او خلقا من المدم ، أو ابداعا من الخواء الفراغ

او تقليدا أجوف للحرف والخط الميت ...

وفي فعل المعرفة هذا - وهو نشاط نور العقل - يرتبط الانسان بوجوده الكياني وبوجود العالم الذي هو جزء لا يتجزأ منه في المقاتلة والمشاركة والابتناق الحسي .

وإذا ما أدركنا - وفق بعض النظريات العلمية ، وهي تتلاقى وتتوافق مع خبرة وحكمة الاقدمين السابقين - أن المادة تكثف للطاقة تتحول اليها وتبع منها في دوام الصيرورة ، وأن الحياة ترفع وتعقد لهذه الطاقة الكونية ، وأن العقل بدوره استملاء وتحول لطاقة الحياة ، لادركنا الخلود والاستحالة أيضا في كل شيء ، لأن الطاقة لا زوال لها البتة ، « وبها أي بنورها صنع كل شيء » ، ولاستوعبنا خاصة مدى التزامنا بالكينونة وبصور ابداعها ، وبالعقل وقيمه ومثالاته ، وتحركه الدائب في انشاء وابداع وترقية المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وفي العلم والفنون والادب .

ثم ، وان نحن أوغلنا قليلا لشهد منبع الحرية في النكوبس لرأيانها تلازم الحياة دائما وأبدا ، كالرفيقة الامينة ، وكانها هي هي . . . فلولاً حرية التبلور النسبية وحسرية التنافر والتجانب والاعتماد المحدودة ، والتي أخرجت الجماد من قدر سنن الحتمية الى شرعة الارجحية ، منذ النشأة الاولى ، لما تمكن التيار انحي أن يتجمع وينحصر ويتوارد لكي ينطلق من صميم طاقة الجماد ، وهكذا نرى الوعي وواجهته الحرية تواكب صعود الحياة في سلم تحقق النبات والحياوان، وزداد نمواً ووضوحاً واستيعاباً وانكاساً لذاتها . . الى أن يبلغ هذا الوعي وهذه الحرية اقصى درجات تفتحهما في مستوى العقل وفسي الانسان . . . فالعقل صنو الحرية ونهجه فيها ونبعثها ، وهي ، أي الحرية ، بدورها شرط انطلاق المعرفة من مهد الامكان وعقال محض القوة .

وهكذا تكون الحرية ائمن شيء في الوجود التام ، اذا اقتربت في ممارستها وفي ابداعها ، بشرعة العقل وقيم استشفافه ، فالاسترام يقوم على مدى كون واسع قبل أن يقوم وينحصر في فضايا المجتمع والجيل .

من هذا المدخل الصغير ، يتصوب لبصيرتنا أن تدرك مقام الحرية وقصيتها في الادب الافريقي والاسيوي ، لا بل في أدب العالم أجمع ، وانما نحن نعيش في عالم ينزع اكثر فاكثر الى التجمع البشري والتكوير والتوحد ، رغم التنوع الظاهر للطبيعة البشرية وللأمزجة وللقاليم ومستويات العلم والتقنية وتعدد الحضارات ، وذلك انعكاساً وتبايناً لوحدة العقل ووحدة استكشافه وطلبته في حقل العلم والعمل ، وفي مجالات الفلسفة والادب والفن على السواء .

واننا لنستوعب اليوم ، اكثر من السابق ، مدى هذا الالتزام للعقل ، قبل أن يكون للحرية ، بجرييات الاحداث والسيارات الوطنية

أشكر رئيس الدولة ورئيس الحكومة على رعايتهما لهذا المؤتمر ، وباسمي وباسم اخوانكم أبناء شعب لبنان ، آحييكم وارحب بكم ، وأتمنى لكم أطيّب التأمّلات في هذا البلد الذي شاء قدر تقاطع والتقاء المكان والزمان فيه أن يجعله على مفرق رئيسي من مفارق العالم القديم والحديث ، ومفصلة بين قارتي اسيا وإفريقيا ، على انه امتداد معنوي طبيعي ، على هذا الشاطئ العربي الزاخر بامكانيات الاقتباس والتوليد، لارض « أوليس » (ulyse) وليونان فيثافورس وتاليس وسقراط الكبرى والصغرى ، وبلاد الفراغة في وادي النيل السذين طفت حضارتهم ، منذ بداية التاريخ أي قبل ستة الاف سنة ، على العالم القديم بأسره . وفوق ذلك ، فإن هذا البلد باب من أبواب الوطن العربي وايران، ومدخل لاسيا الغربية والبعيدة ، فلا عجب ان ولد منا أو نما بيننا فلاسفة وكتاب وحقوقيون وادباء امثال فورفوريوس ، ويامبلخوس ، وزينون ، والمشرعون ، وبولس وبابينيانوس واولييانوس ، كما انطلق ارباب التجارة والاكتشاف في مجاهل افريقيا واوروبا انداك واصحاب القوافل تجوب متقدمة على طرق الحرير والشاي والتوابل في الاقدمين ، وكان هذا البلد فيما بعد موطن الامام الازاعي والسيّد عبد الله التنوخي والبستاني الكبير وصاحب نفيير العرب اليازجي ، وشكيب أرسلان ، والطران ، وجبران ، والريحاني ، وعمر فاخوري . ولا اذكر في الاحياء الا صديقنا ميخائيل نعيمة وشهادة .

فاهلاً بكم وسهلاً ، في هذا البلد الفاصل والرابط بين القمم والبحار وبين عالم الانهار والبوداي وانفراج فسحة الماء المالح تحت اقدام جباله .

في هذا المنتدى القديم الجديد ، نمت وتطورت وتعاقبت ألوان من نظم الحريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى لنكاد ، في تاريخ شعوبنا ، نعرف اليها جميعاً ، ولذا لو كان لنا حظ في التقريب وفي التعمق وفي دراسة التحققات الفكرية والتأسيسية والاجتماعية القابرة ، التي قامت منذ ضوء العقل في القدم حتى فجر النصرانية والاسلام ثم بعد انتشار الحضارة العربية وقيام دولة الخلافة الكبرى ، لواجهنا الحرية بالروح التي تجمع بين الحق الشخصي والمسؤولية ، بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد الحقيقية ، بين حرية التاليف والنشر وواجب الالتزام : اولا بقيم الحق والخير والجمال الخالدة ، لانها من طبيعة الانسان وفي اسس التكوين الاجتماعي، وثانياً بمواجهات النضال والعمل الانساني المباشر في جميع حقوله والمرتبطة بتلك القيم . والانسان كل لا يتجزأ في مصيره ونشاطاته وتكوينه ، وعكسه للوجود ، وانكاسه هو بدوره فيه .

قضية الحرية التي نجتمع لمناقشتها ، وتقدير انعكاسها في ادب كتاب اسيا وإفريقيا هي قضية الانسان منذ أن وجد ، تستنقبطه نم لا يلبث أن يستولي عليها ثم يرهقها ويقيدها أو يصت بها أو لا يقدرها حق قدرها ، أو يمارسها على غير هدى ، ودون اطار من النظام المادي والحرمة المعنوية والمسؤولية الاجتماعية ، فتتردد لتنتقم منه ، ثم يعود فيندرج في مسالكها وأسبابها ، ثم يؤوب الى استنثاره وعيئه ، ثم ترجع هي لتثار باسم القيم الانسانية الدائمة . وهكذا دواليك ، كان التاريخ بأسره تناقض جدلي قد صنع من هذا الصراع بين الانسان

واستشعار مقاصده واستقراء مضامينه ، في المراحل المقبلة علينا ، وهو أشد قربا من نبضة الطبيعة المكونة للوجود المتحول المنعكس في النفس .

فلا عجب ان كانت بعض اداب وفنون وعادات البلاد ، التي اسموها خطأ بالشعوب البدائية أو المتخلفة والحضارات الشرقية غزت وأخذت تمنع في غزو المدينة الغربية حتى في أساليب عيشها ، لان هذه الشعوب التي نسميها متقدمة أو تسمى نفسها كذلك تشعر بفراغ طالب وبحاجة لهذه الاداب والفنون بعد ان غمرتها موجة العقائد الاقتصادية والالة . ولكن وجه الخطل يقوم بأن تتقبل شعوب الغرب هذا النتاج المنوي بروحها هي ، أي أحيانا بذهنية الفلق الفاعل والتلهي والتبديل والته ، لا بروحية تلك الشعوب المستقرة التي أبدعتها . وهنا يكمن الخطر في عملية التبلي لان هذه الشعوب المتقدمة قد عدت عن مصادر الرمز والاسطورة والآثار ، فتضحى تعيش بين مابين وتسبح بين جدولين ، دون انتظار اللتقى لكليهما ، والذي سيجتمع فيه الجريان للنبع الواحد ذاته .

وهذا الالتزام ببعت أفضل ما في الماضي من تراث لا يحجبنا في أي حال عن واجب اليوم المباشر ، وعن الالتزام بالنهضة التحريرية في نضالنا : فلانسان العالم الثالث شيء كثير يجب أن يقوله الى العالم .

بل يكون ذلك حافزا لنا للمجابهة وللتحدي المنوي الظافر وللدفاع عن حقوق الانسانية المعذبة فينا . . وهذه قضية فلسطين العربية الفتصبة الشهيدة تدق أبواب العالم وتوجه الى وحي عدالة العقول وتستغوي المحبة في القلوب وتستغفر الشباب والنساء والكهول منا ليوم العودة والفداء . مليون وربع المليون من البشر يطردهم الاستعمار الاميركي البريطاني ليحل مكانهم شعوبا تنتمي الى مختلف الجنسيات والامم . وهذه صيحة شعوب عدن والمحميات العربية ثورة لا تهدأ ولا تتوقف ولا تغلب . .

وهذه الصرخة الداوية لشعب فيتنام البطل يكافح بدمه ويعقله وبأسطورة بطولته أكبر قوة عسكرينة وجدت في التاريخ فيتنصر ولا يقهر . .

وهذه موافع الاستعمار والتمييز العنصري في افريقيا واسيا وقواعد الاستعمار الجديد في اميركا اللائنية تناضل لاجل الحرية والحياة الكريمة والمساواة .

هذه في آدابنا وفي شعرنا وفي فنوننا. منطلقات لحكايات وهج

صدر حديثا

ديوان شعر

ثائر وحب

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب

والثقافية والسياسية التحررية ، لاننا أضحيينا نعلم تماما ، كما تشير الى ذلك الدراسات الوافية الاجتماعية المتقدمة ، ان تراث الشعوب المتخلفة في افريقيا واسيا ، وبعضها لا يزال في طور البدائية الاولى ، ان هذا التراث ليس هو مجموعة من الصور والاساطير والطقوس الجاهلة المتأخرة كما كان يتصور ذلك بعض البدائين في تلك الابحاث ، بل هو بالحقيقة حضارة قائمة حية غنية ، قد تكون أقرب الى نهج الحياة وروحها ووافق للمجاري النفسية والطبيعية البشرية من مدينتنا الآلية الصناعية على ان هذه الحضارات نسبية ، فيجب ان ننظر الى فنونها وحرفها وأدبها وآدابها وعلومها الدفينة وعاداتها بعيين شعوبها ، اي ببصيرة فتوة الانسان الذي هو فينا ، لا بمنظار مدينتنا الغربية التي هي معظم الاحيان سطحية في نظرتها للغير وغرورة وتبتعد بنا عن الطبيعة .

ومن هذه المواجهة تستبان أهمية العودة ، للاستيحاء والارتواء من آداب وفنون بعض الحضارات الآسيوية والافريقية والشرقية الكبرى التي كانت مدينتنا انسانية في المعنى الصحيح للكلمة ، فارتفعت فوق مقاييس زمانها الى حاجات الطبيعة البشرية الدائمة ومطالب العيش وحقوق الانسان الخالدة ، وطلبة استكشاف العقل في انعكاسه على ذاته وعلى الوجود .

وقد تكون تلك الاساطير والقصص الواقعية وروايات الانسوالالهة والادغال في الافديمين والمحدثين ، ولدى جميع الشعوب المتخلفة والبدائية والنامية والمتحضرة . وكلنا مزيج من التخلف والنمو - أفضل مرفاة لنا وسلما للاستنارة بنهج وقواعد الالتزام المفروض . وهناك لون آخر لهذا الالتزام ، هو وجه الالتزام بالشكل وبالصورة الحسية والفكرية وبالكلمة التي تقرأ فتفهم ، وبالانفصام التي ترتفع لمواكبتها التصورات والخيالات والعواطف او تستنفر في مقابلتها طبيعة الانسان ذاته على بساطة جوهره وعلى تركيب اعراضه وطلبة الحق والخير والعرف والجمال والحب في صفاء مراقبها في العقول وانعكاس اشباحها على مرآة الذاكر الاول القديم والمنطوي في ذهن الاجيال .

فالانسان لا يستطيع ان يفكر او يعرف او يشعر بدون شكل وصورة وكلمة ترافق الفكرة ، ووتيرة وايقاع ينسجم مع ايقاع الوجودية الحياتية ، العميقة جذورها في آفشيننا وفي تلافيف دماغنا ، والناطقة في دماغنا وفي أعصابنا وفي أفتدة قلوبنا ، والمستبطنة لحافظتنا .

ولا ندري ما هو القصد من هذه الفنون التحليلية الحديثة في أوج لعب الانسان بالحرف والخط الصنم وفي فورة اللهو والصب سوي وضع كتيب فلق للانسان الحديث يجعله يفتش عن ملجأ الفيل في الجرة ، أو عن نبضة الحياة في تفتت نواة من النبات ، على حد المثل الهندي الشهير ، أو كمن يريد معرفة تكوين كف من الصلصال بتجزئته على التوالي والى غير حد ليرى سر الجمال فيه ، وهو لا يظن ان الجمال البادي كان في الصورة المتجمعة وليس في الحبيبات التي تتألف منها هذه الصورة ، أو كمن يريد الكشف عن الروح والتعرف اليها في الانسان الميت بالتقصصي عنها في أحشائه وفي دماغه وفي قلبه .

او لعلنا - فيما نراه من ازدهار للحرف والخط والهيكل الرمزية - فوق ما أشرنا اليه من ولوج الانسان الحديث في مجاري قدر قلقه - لعلنا فيما نراه من تصوير تحليلي - وفي موازة العلوم الهندسية والجبرية المعبرة عن لون من ألوان الوجود - لعلنا نكون في دور تطوير ابجدية عالمية شاملة جديدة .

وفضة الصورة ، كحديث القصة ، لا تنضب على لسان ولا تغنى في مخيلة ولا يعدم لها وفاء . بها بدأت الحروف ذاتها صورا معبرة في روعة الجمال في مصر وفي الصين وفي اللغات السامية ذاتها . وفي هذا المنطلق ، ان الانسان الحديث - في شطريه - هو أشد حاجة لانسان العالم الثالث أكثر مما نتصور ، لان هذا الأخير ، بالنسبة لبقاء ونمو حسه الاسطوري ، لا يزال أقرب الى استجلاء اهداف التطور

الاساطير وانبعائها حية في النفوس تروي صراع الانسان مع ابنساء جبارة الاله في ملاعب الدنيا والاخرة .

ولكن هذا الكفاح العملي المباشر سيجد له غذاء جوهريا وامدادا معنويا وقوة وطاقة عظيمة فيما يتوجب علينا ان نقوله لانفسنا وللعالم من وحي حضارتنا وثقافتنا المتجددة المتطورة .

ولعل الازمة العابرة التي يعانها تضامن الشعوب الافريقية الاسيوية في علاقاتها مع بعض الدول تجد لها مجالا للعمل في هذا الاتجاه الوافر في التأثير وتنوع امداد حقوله ، ونعني في توضيح مفاهيم انسان العالم الثالث على ضوء تراثه القديم والمتجدد . واذا ذلك يكون لادباء وشعراء وفناني اسيا وافريقيا الحظ في تلقيح العالم بأفضل ما لدينا من نظرة متشعبة غنية شاملة واصيلة للانسان .

وفي هذا المنعطف يقع على عاتقنا ان ننشئ كنوز حضارتنا من مخابثها ، وبعضها لا يزال حيا . . متفاعلا منظورا كحضارات الشعوب الكبرى في اسيا ، وثقافات معظم بلدان اسيا وافريقيا . وبعضها كحضارتنا العربية يكفي ان نزيل عن سطح غطائها بعض رماد الاجيال المتراكم ، لكي تظهر على اروع ما تقدمت به من عطاء لكل جيل .

وبكلمة ان الانسان الحديث العادي ، لفرط ما غشت عينيه فكما انه لا يمكن ولا يجوز القطع والفصل بين الانسان وبين تراثه ، فلا يمكن ايضا القطع بين الانسان وبين طبيعته . . او على شاكلة قول طاغور بما معناه : « ان الشخصية البشرية هي غير متناهية . . وانى لارى نفسي في جميع وجوهها » .

هذه هي رسالة العالم الثالث ، المتحرر بمؤسساته واقتصاده وادبه وفنونه من القومية الضيقة على الشاكلة التي عرفتها أوروبا في القرن الثامن والتاسع عشر ، المتحرر من العنصرية ومن مركب التفضيل وتمييز الاجناس ، المتحرر من الاستعمار فسي جميع اشكاله والوانه الملعنة والخفية ، والخبيثة والظاهرة والمتجددة .

ان مواكب الغد المأمول ستشهد دور انسان العالم الثالث فسي استنباط افضل ما في القرب ، في شطريه واختباريه ، وفسى تلقيح هذا المجتمع المتطور بخير ما لدينا جميعا من تراث معنوي وانساني ونظرة واقعية وشاملة لمواجهة الانسان في تحقيق وجوده ، وذلك لان رجل افريقيا واسيا لا يزال في عيشه وفي فطرته وفي حضارته يمازج ويخالط ويعاشر الاسطورة في الحياة . . وهل حياة كل منا ، اذا ارتضيهاها وتقبلها فرح الوجدان ، سوى ابرز واحلى الاساطير المقولة او المكتوبة او التي لم يتمدها بعد خاطر الفنان والتي تنبع جميعها من وعي نفوسنا ورغبتنا في تصور الوجود ؟ . وهل الأفكار وطاوقات الوحي والمواظف ذاتها التي تتوالى وتتوارد - بالرغم منا معظم الاحيان ، وبارادتنا مرارا قليلة - على خاطر الحلم ولوح اليقظة العادية سوى رموز وتماثيل مصورة ، نكتب على فراستها واستكشاف جذورها وتاويلها وتفكيك احاجيها والفوس في اعماقها ، كمن يرقب ويتابع في تنهه جريان أسطورة دائمة اخرى نشعر - في مرتقى الشهود - وكاننا عنها تماما غرباء .

وبعد ، اخذ الله بيدكم لاجل تميم هذا الاجتماع في عقب نسدي الارض وفي بلد عربي مستقل يعتز بمشاركته وينضاله ، ولاتخاذ التوصيات ، التي يقتضيها واجب المواجهة والعدالة في عالم تحف بنا اخطاره وتقلقنا هواجسه ، ويشوبنا سوء طالعته في التسليح الدائب وفي ارادة التسلط والاستعمار وفي الانقسام ، وهم يبدرون على لعب ودمى اسلحتهم العادية والذرية ما يقرب من مائة وخمسين مليارا من الدولارات سنويا ، هذا بينما نصف لا بل ثلث شعوب اسيا وافريقيا يتضورون من انعدام الغذاء ومن الحرمان ومن التخلف الاقتصادي الشامل .

طابت نزلتكم بيننا ووفادتكم على الرحب والسعة وفق التقاليد اللبنانية العربية والسلام عليكم . .

كمال جنبلاط

صدر حديثا :

الدكتور محمود السمرة	٤٠٠
السيد حسن الشيراوي	٣٠٠
محمد كاظم مكي ، علي العبد الله ، كامل سليمان	٧٥
محمد كاظم مكي ، علي العبد الله ، كامل سليمان	٧٥
خازن عبود	٣٠٠
محمد عبد الرحمن الجديلي	٢٠٠
سميرة بنت الجزيرة العربية	٣٠٠
سميرة بنت الجزيرة العربية	٥٠٠
سميرة بنت الجزيرة العربية	٢٠٠
سميرة بنت الجزيرة العربية	٢٠٠

منشورات

المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت

ص. ب ٢٦٦٨ - بيروت